صدامُ الأضداد وحوارُ القُوَى

أسماء الشامسية

إنّ نوع الصدام الذي يُستَهل به مقال الكاتبة منى دياب "الحضارات صدام أم حوار، جدليات التطور الدائم" (مجلة التسامح - التفاهم عدد٧) ليس يُفهم منه أنّه الصدام ذاته الذي نظّر له هنتنجتون عن صراع الحضارات الغربية ضد الشرقية فحسب، وإنما هو أيضًا محاولة أوروبا التمايز بثقافتها ضد الثقافة الأمريكية، ويُفهم من ذلك أن بوادر صدام ثقافي غير أمني تعيشه القارتان، وتسعى أوروبا لمحاصرته فكريا وثقافيا، يأتي بعد ذلك صراع الأضداد، الحضارات التي تختلف جذريًا من حيث التاريخ والبُنى الفكرية والدينية والاقتصادية هي حضارات الشّرق والغَرب وخلفيّات هذا الصدام في مقابل محاولات الحوار العالمي.

تبدأ دياب بوصف أوروبا بالحضارة التي توحّدت انتصارًا لأوضاعها الاقتصادية وليس انتصارًا للدين الجديد "المسيحية" بدليل أن أوروبا أبقت على الهندوسية المُسالمة في طريقها إلى الاستيلاء على السوق الهندي فضلاً عن استعمارها لشمال إفريقيا لتأسيس أكبر سوق استهلاكي. فالعامل الاقتصادي بالنسبة لدياب هو نفسه عامل حوار وصدام، حوار بالنسبة للدول المتجاورة التي اتحدت لاحتلال شمالي إفريقيا وهو عامل صدام بسبب عدم توازن قوى "أوروبا-أفريقيا" ليتم السيطرة على إفريقيا ونهب مقدّراتها.

يتضح من إيعاز عاملي الحوار والصدام للعامل للاقتصادي فقط التقليل من دور العاملين الفكري والثقافي، بل إنّ محاولة الصدام بالعامل الثقافي من خلال التغريب يمكن أن يكون الطريق الممهد للهيمنة على موارد الحضارات الاقتصادية، ففي الواقع لم تكن سيطرة أوروبا لشمالي إفريقيا مرتهنة بوسائل غير الوسائل الثقافية للاستيلاء على سوق إفريقيا الاستهلاكية.

وتجد دياب أنّ تضافر أربعة شروط كفيل بقيام دولة وحضارة كاملة وهي الوضع الاقتصادي ومجاورة المكان (الجغرافية) وتوازن القوى والفكر، مستدلة من التراث الديني والتاريخي لشعوب الرومان وأوروبا القروسطية وأوروبا عصر النهضة على تعزيز هذه العوامل في حوارها وصدامها الحضاريين، ومن ذلك تزعم دياب أنّ لإعلان الحرب قديمًا سببًا معلنًا وهو الطمع في خيرات الآخرين بينما اليوم ثمة سبب زائف وسببية حقيقية، فالأول معلن والثاني خفي، فالحرب المعلنة بأنها حرب دينية تخفي خلفها سببًا اقتصاديا استعباديا، ومثال ذلك وعد بلفور الذي كان هدفه التمكن من تثبيت الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط وليس لإرضاء يهود العالم.

من الواضح جدا أنّ الصدام والحوار ليسا طارئًا حضاريا بقدر ما هُما استمرار لحركة التاريخ الطبيعية، إذ نجد العالم قديمًا وحديثًا ينتقلُ بين هذين القطبين متى ما صوبّت حضارة هدفًا - مهما يكن نوعه- تجاه الأخرى بعبارة أخرى وقتما تحققت المصلحة. وبالطبع في سبيل تحقيق هذه الغايَة لابُد من استخدام الخلفية الدينية والثقافية من أجل التمكن من الهَدف، ولقد التقت مصالح العرب والغرب وقتها لحقن اليهود في أرض فلسطين، رغمًا عن التيار المُمانع وهو ما لم تتطرق له دياب من أجل عقد هذا التوازن الضروري لفهم هذا الصّدام التاريخي، ولو افترضنَا أنّ الغرب لم يكن يُفكر أنّ الإسلام هو مصدر تهديد قبل الحادي عشرمن سبتمبر فلقد روّجت الآلة الإعلامية لذلك بعد هذه الحادثة التي أحدثت تمفصلاً عميقًا بين محوري الشرق والغرب، إنّ المسلمين يرون اليوم أنّ ثمة حضارة تصدّر رموزها ومظاهرها الثقافية عبر وسائلها الإعلامية وعبر اقتصادها وعبر سياستها الخارجية ضمن عولمَة كونية ومن أجل صدّ هذا المد القادم من الغرب كانَ لابُد من التمركز حول "الأصول" وترسيخ "الخصوصيات الثقافية" فقد تحول القلق إلى قلق هويّاتي خالص ضد موجة التغريب الكاسحة، إلا أنّ المُسلمين لم يرفضُوا التحديث، هذا الأخير الذي يقول عنه هنتنجتون أنّه ليس بالضرورة مؤديا إلى التغريب، ولكن في الحقيقة إن هذا التحديث لا يمكن أن يحمي العرب والمسلمين من خطر التغريب خصوصًا أنهُ غير مؤسس على بُنى فكرية وتاريخية عميقة، فلا علاقة لهذا الحاضر التحديثي بماض العرب وتاريخهم، إنما هو مستورد ومرقّع، وإذ يُدرك العرب والمسلمون ذلك فإنهم دأبوا على تخصيص ثقافتهم وتميزها وحمايتها من التنميط الثقافي العالمي عن طريق "أسلمة" كل ما هو مستحدث، لكن مع هذا الشعور القومي بالتحصين من العولمة فإنّه لاوعيًا يجعلهم في حالة صدام دائم مع الثقافات الدخيلة.

كان يمكن للخصوصية الإسلامية بمظاهرها وأدواتها ورموزها وثقافتها أن تكون متوائمة مع حركة العالم دون الشعور بأي خطر أو تهديد لولا أن الحضارات المتفوقة حاليا تتقدم بوتيرة أسرع من قدرة العرب والمسلمين على تجاوزها أو على حماية ثقافتهم من خطر الإغراء.

وفي حديث دياب عن لازمة تاريخية مهمة هي لازمة القُوّة تُدلّل على أن القُوة هي أساس تكوين الدّولة وأساس تاريخ حركة الحضارات كما هو حال أوروبا التي لم تتخل عن السيطرة على شعوبها بالحوار بل تخلت عنها بعد معارك ضارية وقاسية خلفت آلاف القتلى، وأن ثمة جدلية تاريخية خاصة بالحضارات التي تعتاش على استخدام لازمة القُوة مثل المغول؛ فهذه الجدلية لا تُلغي الحضارة مهما كانت هذه الحضارة وهي تغزو عارية من الفكر والحوار والتمايز الحضاري، بل تؤيد لها البقاء في مظاهر الاندماج الحضاري. فبعد اعتناق جنكيز خان الإسلام اندمجت الحضارة المغولية ضمن النسيج الإسلامي الذي عرفت منه الحوار وأرست سياسة المغول على أساس من الوحدة الفكرية.

إذًا تؤول دياب قيام الحوار بعد أشواط طويلة من استخدام القُوة والعنف، وهذا مما لاشَك فيه إذ أنّ صيرورة التاريخ الطبيعية التصدع والاستقرار المتناوبين وليست ثمة حضارة يمكن أن تنجو من تهديد حضارة معادية، ولكن ما يثبته التاريخ أنّ حضارة ما تتوسع وتدخل حيز ثقافات ذلك التوسع لابُد أن تتصاهر وتتلاقح ثقافيا وفكريا كما هو حال المسلمين في دخولهم الأندلس والمغول في دخولهم أرض العرب.

أخيرًا تحاول منى دياب بناء صيغة توفيقية لثنائية الصدام والحوار لتنتصر إلى الحوار ضمن الشرط الإسلامي الذي تجده حلاً لترسيخ الأخلاق الاجتماعية، ولكن بحسب قولها لن يُستكمل هذا الحوار بسبب انقلاب الإسلام إلى جاهلية على كافة المستويات انعكست على المسلمين وبالا؛ فالفقر والأمراض وسوء التعليم والتأخر العلمي وغيرها لا يمكن أن يكون مُصدّرُو الحوار العالمي مبتلين بها. بالطبع إنّ اقتراح دياب لم تأت من عاطفة قوميّة لأنّه من المستحيل حضور الحوار كشرط للوجود الإنساني طالما هو مرتهن بقوة الأمة الحضارية، وهذا لا يعني في حال استردت الحضارة الإسلامية بريقها فإنّ الحوار العالمي سيكتمل، بل لابُد من تكافؤ القوى العالمية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فالحضارات القديمة كانت متكافئة تمامًا من حيث القُوة الثقافية والسياسية ما حقق لها الحوار ضمن مراحل تاريخية بعينها بينما اليوم لا توجد عدا حضارة واحدة "الحضارة الحديثة" وهي الحضارة الممتدة من الشرق إلى الغرب. حتى لو امتلكنا جميعًا هويات متعددة إلا أننا ما زلنا حداثيين ونتبنى أشكال هذه الحضارة الحديثة في مأكلنا وملبسنا في تشييد طرقنا ومطاراتنا بل أصبحت لغتها هي اللغة الأساسية في تعاملاتنا حتى ونحن في بلداننا وضمن نسيجنا الثقافي!

إنّ هذه الحداثة التي طرأت علينا جعلت التقليديين في البلاد النامية يشعرون بالامتنان والحنين لتاريخهم وثقافتهم ويتمركزون حولها رافضين التوحد ضمن ثقافة عالمية فيما يُسمى العولمَة، والتوحّد هذا لم يكن يومًا شرطا ضروريًا إلا بتنويع الموحّد من أجل الحفاظ على تمايز كل ثقافة وأخرى، وذلك لا يمكن ضمانه إلا عبر توازن قوى الحضارات، وطالما لم تعد القوى متوازنة بل ثمة حضارة متفوقة تُصدر ثقافتها وأخرى غارقة في التحشيد العسكري دون أي اهتمام بالتحشيد المعرفي الأساس فلا يمكن لهذا الحوار الإنساني أن يتم.

asmaashamsi@hotmail.com